المذهَب الكلاسي الحديث

مميزات المذهب ● بيير كورنى ● السيد ● سنّا ● أندروماك ● الكلاسية الحديثة خارج فرنسا ● ناثان الحكيم ● وليم تل ● لدكتور فاوست .

تعدّ الفترة الواقعة ما بين عامى (١٦٦٠ ، ١٦٨٥) من تاريخ الأدب الفرنسى هى العصر الذهبى للمذهب الكلاسى الحديث فى فرنسا ، مهد الكلاسية فى أوربا كلها ، وهى تلك الفترة من حكم الملك لويس الرابع عشر ، راعى الفنون والآداب ، وموجه الحياة الفكرية فى العالم فى عصره . . وقد سبقت هذه الفترة حقبة من الاستعداد والاضطراب الفكرى مهدت للعصر الكلاسى العظيم ؛ وتلك الحقبة هى التى كان يتولى توجيه دفة السياسة الفرنسية فيها الكاردينال ريشيليو نائبًا عن الملك الضعيف العاجز لويس الثالث عشر . . وكان من أهم أغراض الكاردينال إزالة الأثر الرومانسى الذى تركته حملة الأسبان على فرنسا واحتلالهم باريس . . ومن ثمة حرص على إحياء المذهب الكلاسى اليونانى القديم وشجع الأدباء والشعراء على احتذاء الشعراء اليونانيين والرومان مع التعديل فى المذهب بما يوائم مقتضيات العصر ، وما ينسجم والروح المسيحى والتعاليم المسيحية . ويعدّ كورينى « من شعراء المسرح » و « ماليرب » مهذب اللغة الفرنسية ، وديكارت وباسكال الفيلسوفان ، ممثلى تلك الحقبة . أما ربع القرن العظيم (١٦٦٠ ـ ١٦٨٥) فى حياة الكلاسية الحديثة فى عهد لويس الرابع عشر، فيمثله راسين وموليير « المسرحيان » وبوسويه « الشاعر » وبوالو « مقنن الكلاسية الحديثة وأشبه رجالها بهوراس » ولافونتين شاعر أقاصيص الحيوان والطيور الخيالية البارعة الممتلئة بالحكمة والأمثال الواعية .

مميزات المذهب :

يمتاز المذهب الكلاسى الحديث بالسمات الآتية :

ـ محاكاة قدامى اليونان فى مسرحياتهم من حيث الشكل ، مع تيسيرات أهمها :

ا ـ إباحة وجود عقدة ثانوية أو أكثر ، بشرط ألا يضعف ذلك من العقدة الأساسية، وألا تشوه وحدة الفعل ـ أعنى وحدة الموضوع .

ب ـ لا بأس من اتساع وحدة الزمان ، فلا تقف عند دورة شمسية كما قال أرسطو، بل قد تمتد إلى ثلاث دورات . . أى ثلاثة أيام . . وإن كان راسين ينزل بمدة عرض الأحداث الممثلة إلى ما لا يكاد يزيد عن ساعتين أو ثلاث لو جرت هذه الأحداث فى الحياة الواقعية .

جـ ـ ولا بأس أيضًا من أن يمتد نطاق وحدة المكان بحيث يشمل مدينة بأسرها أو قصراً بأكمله . . بحيث إذا تغير المكان ـ أى المنظر ـ لم يخرج عن حدود المدينة أو حدود القصر الذى تقع فيه الأحداث .

د ـ الإبقاء على عظامية الشخصيات ، ولكن لا مانع من اتخاذ الوصيفات والأصدقاء فى أدوار لا تعد أدوارًا تافهة .

هـ ـ الإبقاء على الأسلوب الأرستقراطى على أن يكون أسلوبًا واضحًا سليمًا وشاعريًا مع ذاك .

و ـ الكلاسية الحديثة لا تعرف الكورس ولا الأناشيد .

ز ـ إحلال الحب وأهواء النفس محل القضاء والقدر عند اليونانيين كمحور تدور حوله أحداث الرواية ، ومن هنا أصبحت الكلاسية الحديثة ذات نزعة عالمية ، وهى بذلك تقترب من يوربيدز إلى حد ما .

وكان الكلاسيون الفرنسيون يتخذون موضوعات مآسيهم وملاهيهم من الموضوعات اليونانية أو الرومانية ، أو من بطون التاريخ وأحداثه العظيمة ، ثم يتجهون بالموضوع بعد ذلك وجهة نفسية « سيكلوجية » أو اجتماعية توائم الآداب الحديثة السائدة فى القرن السابع عشر ، ومن ثمة كانت الكلاسية الحديثة تعنى بالروح ، ولا تحفل كثيراً بالمظهر الذى لم يكن يزيد عن إطار مادى سرعان ما ينساه المتفرج وهو يشاهد المسرحية . . هذا مع بروز الناحية الفكرية والمنطق العقلى الذى يساعدنا على الفصل بين الحق والباطل ، وما هو شخصى قد لا ينطبق علينا جميعًا ، وما هو كلىّ يتناول مشكلات

المجتمع وينطبق على الناس فى كل زمان ومكان ، وهكذا تتميز الكلاسية بأنها غير شخصية ، فإذا تحدثت إحدى الشخصيات عن متاعبها أخذت تعلل وتوضح الأسباب التى تجعل المشكلة مشكلة عامة يحتمل أن يقاسى منها أى إنسان . . ويكون هذا فى غير مبالغة ولا خروج على ما هو معقول . ولذلك تكثر فى المسرحيات الكلاسية الحديثة الأحاديث الفردية « المنلوجات » الطويلة والمناقشات التى يبطؤ معها الفعل وتقل الحركة .

ولقد كانت الكلاسية الحديثة شديدة الشبه بالكلاسية اليونانية من حيث إنها كانت تتجه إلى تسلية الخاصة ، كما لاحظ أولس جليوس Aulus Cilius الذى أطلق على المذهب هذا الاسم ، ومن حيث إنها كانت تتناول المشاكل النفسية والأزمات الروحية ؛ وقد اختصت الملهاة الكلاسية الحديثة فى معظم أحوالها بتضحيك المجتمع على سخافاته وأمراضه الأخلاقية والسلوكية ، حتى أطلقوا على موليير : « المشرع وواضع قوانين السلوك للمجتمع ! . . » .

وإذا صح أن الكلاسية كانت تتجه إلى تسلية الخاصة ؛ فقد نجحت فى رفع طبقات الشعب إلى منزلة هذه الخاصة بما كانت تقدمه إلى تلك الطبقات الشعبية من دروس فى أزمات الروح ، والمشكلات النفسية فى عالم المأساة ، وما كانت « تُشَرِّح » به سلوك الناس وأخلاق النماذج البشرية فى عالم الملهاة .

وأعظم من يمثل المأساة الكلاسية الفرنسية كورينى . . ونجمها اللامع راسين .

بييركورنى :

وقد استطاع كورنى أن يجمع بين محاسن تلك الفترة المضطربة التى سبقته والتى كان المسرح الفرنسى طوالها يتلمس طريقه إلى الأوج الذى بلغه فى فترته الكلاسية الذهبية ؛ لقد استطاع كورنى أن يجمع بين محاسن هذه الفترة وأن يمهد الطريق لراسين العظيم . والذى يقرأ كورنى لا يحصل منه على اللذة التى يحصل عليها من يشاهده فوق المنصة . . حيث يرى فنه ويسمع شعره . . وكورنى يكاد يكون رومانسى الروح ؛ كلاسى الاتجاه . . وقد نظم مسرحيته « السيد » فى تلك الفترة التى لم تكن ملامح المذهب

الكلاسى الحديث قد استبانت وتحددت معالمها . . ولقد لقيها المتنطعون بحملة من النقد الظالم ، مع أنها هى المسرحية التى فتحت للمسرح الفرنسى أبواب الخلود . وقد عاد كورنى فالتزم حدود المذهب الكلاسى ليبرهن لناقديه على أنه لا يعجزه ما يقتضيه هذا المذهب من قيود وقوانين ، لكنه مع ذاك لم يستطع التخلص نهائيًا من روحه الرومانسى . والسمة الغالبة على مسرحيات كورنى هى الروح المثالية . . إنه أقرب إلى إسخيلوس ـ الذى كان يصف الناس كما يجب أن يكونوا فى نظره ـ منه إلى سوفوكلس الذى كان يصفهم كما خلقهم ربهم . . ومأساته « السيد » شاهد على ذلك ، بل كل مآسيه الأخرى .

* * *

السيد :

كان الفتى الفارس الشاب رودريج مولعًا حبّا بالفتاة الفاتنة شيمين . . وكان رودريج ابن قائد جيش قشتالة السابق الدون دييج . . هذا الرجل الطيب الدمث الخلق وقع عليه اختيار الملك فرديننند ملك قشتاله ليكون مربيًا ورائدًا لولى عهده . . وكانت شمين ابنة الكونت جوميز القائد الحالى لجيش قشتاله ، وكانت تبادل رودريج حبّا بحب وميلاً بميل . . وكان الوالدان متفقين على خطبة الفتى للفتاة .

وكانت الفتاة أوراك ابنة الملك فرديننند مجنونة غرامًا بالفتى رودريج ؛ لكنه كان غرامًا يائسًا ، لأنها من سلالة الملوك الذين تتدفق فى عروقهم الدماء الزرقاء . . أما رودريج فكان من العامة ، وإن كان أبوه قائد الجيش القشتالى السابق . .

ولما وقع اختيار ملك قشتالة على الدون دييج ، والد رودريج ، ليكون رائدا ومربيًا لولى عهده غضب والد شمين جوميز ، وسخط على الرجل الطيب ، وسلفه فى قيادة الجيش . . لأنه كان يرنو بعينيه إلى ذلك المنصب الرفيع الأسنى ، الذى لا يعدله أى منصب فى الدولة . . وفى حديث بينه وبين دييج وهما منطلقان من لدن الملك ، بعد تلك الجلسة التى تم فيها اختياره لدييج ليكون رائداً لولى عهده ، تطور الكلام واحتد ، وانتهى بأن لطم جوميز الرجل الطيب على حر وجهه لطمة أطارت الصواب من رأس دييج الذى عجز عن استلال سيفه ليثأر لنفسه من الرجل الذى أهانه . .

وينصرف الكونت جوميز بعد أن يوسع الدون دييج سخرية واستهزاء . . وبينما يكون الدون دييج فى هذا الموقف الصعب ، إذا ولده رودريج يقبل ، فيهتف به أبوه : «أى بنى : رودريج . . إن كان حقّا أن الدم الذى يتدفق فى عروقك هو من دمى ، فاثأر لأبيك ! . . » .

ـ « وممن يا أبى ؟ . . وماذا حدث ؟ . . » .

ويفصّل الوالد ما جرى بينه وبين جوميز لولده . . فيضرب الظلام فى عينى رودريج ، وتدور رأسه أسى وحسرة . . إذ يرى قلبه وعقله يصطرعان ، بين شمين الحبيبة ، وبين دييج الوالد المجروح الكرامة المهدر الشرف . .

على أن رودريج يفصل بين عقله وقلبه آخر الأمر ، ويقرر الثأر لأبيه .

ويلقى الشاب خصمه ووالد حبيبته ومعبودة قلبه فيتحداه ويطلب مبارزته ، لكن قائد الجيش القوى يعجب له وينصح إليه بالتعقل والتروى ، ويذكره بشمين ويحاول تخويفه بأنه لا يزال غضّا لدن العود ، وأنه يطلب مبارزة أقوى فارس فى إسبانيا كلها . . وخير له أن يرحم شبابه ، ولا يركب رأسه . . إلا أن هذا كله لا يثنى عزيمة رودريج . . بل يهجم على الرجل ، ويضطره إلى النزول .

ويغادر الخصمان المسرح . . ويقتل رودريج والد الحبيبة .

ويصل الخبر الأسود إلى شمين فتقيم الدنيا وتقعدها ، وتهرع إلى الملك لكى يأخذ لها الثأر من حبيبها بدم والدها . . الذى كان ركنًا من أركان الدولة ، وسيفًا للملك ! . .

ويؤجل الملك النظر فى المشكلة حتى يسمع الأطراف المعنية . . ولكن شمين تصر ! . .

ويلقى رودريج حبيبة القلب ومنية النفس ، ويقدم إليها السيف الذى قتل به أباها لكى تثأر لنفسها به . . ولكن من ؟ . . وممن ؟ . . إنها تصرفه وهى تذوب أسى . . وحبّا ! . .

ويلقى دييج الأب رودريج الابن فيعرض عليه أن يقود هؤلاء الجنود الخمسمائة الذين

أعدهم والده لمحاربة العرب القادمين لمحاربة قشتاله ، وأن يضم إليهم من يرى أن يضمهم من الأهالى الأسبان ، ثم يذهب هو للقاء الغزاة ، فإذا انتصر شفع له انتصاره عند الملك فيصفح عنه لقتله قائد جيشه ، وإذا قتل قتل فى ميدان الشرف والجهاد دفاعًا عن حومة البلاد . . لا مقتولاً كما يقتل المجرمون جزاء ما جنت أيديهم .

ويعجب رودريج بالفكرة ، وينهض للقاء العرب . . ويلقى أعداء البلاد فينتصر عليهم ، ويعود من ميدان الوغى ظافرًا مؤزرًا ، وتهتف البلاد كلها باسمه ، ويلقبه مواطنوه بلقب « السيد » . . نفس اللقب العربى الذى يلقب به العرب ساداتهم . .

ويعلم الملك بما كان من أمر رودريج فيفرح بالنصر أيما فرح ، ويلقى السيد فيهنئه ويمنحه لقب « السيد » منحة رسمية . . ثم يصفح عنه ويغفر له قتله قائد جيشه ؛ بل يعهد إليه بمنصب القائد المقتول .

وتعلم شمين بذلك فتحضر ساخطة ناقمة ؛ لتطالب الملك بدم أبيها .

وهنا تبدو للملك فكرة لطيفة . . إنه يطلب من رودريج أن يختبىء فى الغرفة المجاورة . . ثم يلقى شمين التى تسفح دموعها بين يديه ، وتلح فى طلب الثأر للوالد المقتول . . ولكن الملك يطلب إليها أن تطمئن . . ويدعى لها أن رودريج عاد من المعركة وهو مثخن بجراحه ، ولم يكد الملك يلقاه ويهنئه حتى أسلم المسكين روحه لبارئها ! . .

وعند ذلك يبدو الحزن فى وجه شمين ، وتضطرب ، ولا تملك إلا أن تنعى حبيب القلب ومنية الفؤاد . . فإذا رأى الملك ذلك عاد فطمأنها ، ودعا رودريج فبرز من الغرفة المجاورة ، فتخزى شمين ، وتدعى أن ما بدا عليها من الحزن والاضطراب إنما كان سببه أن رودريج مات ولم تثأر منه لوالدها .

ولا ينطلى ذلك على الملك . . وهنا تقول شمين : إن ثمة من سوف يثأر لها . . إن ثمة هذا الدون سانش ، الفارس المغوار الذى كان مشغوفًا بشمين غرامًا ، إنه سوف يبارز رودريج ، وهو لابد قاض عليه ! . .

ويطرب الملك للفكرة ، ولكنه يقول : بل الفائز من البطلين هو الذى لابد أن يصبح زوجًا لها ! . .

وتسكت شمين دليل الرضا ! . .

ويذهب رودريج للقاء شمين ووداعها ، ويحدثها أنه ذاهب للقاء حتفه ، لأنه لا يستطيع أن يقتل رجلاً يحارب بذراع شمين ! . .

وتهلع شمين ، وتوصى رودريج بأن يحارب وينتصر ، لأنها لا تقبل أن يقتل رجل - مهما يكن - الرجل الذى استطاع أن يقتل أباها - وهو أشجع الشجعان ! . .

وتقع المبارزة ، ويهزم رودريج خصمه ، لكنه لا يقتله ، وهو يبقى عليه بثمن بخس . .

إنه يبقى بشرط أن يحمل السيف الذى جرحه به ، والذى لا يزال يقطر من دمه ، فيذهب به إلى شيمين لينهى إليها نبأ انتصاره عليه ! . .

ويقبل البطل المهزوم ، وما أيسره ثمنًا لحياته ! . .

ويذهب سانش إلى شيمين التى لا تكاد تراه حتى تظن أنه قتل رودريج ، فينخلع قلبها ، وتهدم الدنيا فوق رأسه ، وكلما حاول تهدئتها ليبلغها ما حدث عادت إلى الصخب والضجيج ، وعادت إلى سبه ولعنه .

وهنا يبرز الملك . . فيهدىء من ثورتها ، ويطمئنها على منية النفس ، ويزف إليها نبأ انتصار الحبيب ! . .

* * *

وبعد فهل هذه مأساة ؟ . . وهل هى من المذهب الكلاسى ؟ . . أو هى من صميم المذهب الرومانسى . . المذهب الذى لا يعرف القيود ولا الحدود ولا القوانين . .

أين الوحدات ؟ . . أين البساطة وقلة التعقيد ؟ . . أين تغليب العقل على العاطفة؟ . .

على القارىء أن يتولى الإجابة على ذلك كله بنفسه .

* * *

سنّا : Cinna (مسرحية كلاسية لكورنى)

كان أغسطس إمبراطور الرومان العظيم قد قتل خصمه تورانيوس كما قتل غيره من المتألبين عليه ، وذلك فى سبيل استقرار الملك واستتبابًا لدعائم السلام فى البلاد ، وكان لتورانيوس ابنة صغيرة جميلة اسمها أميليا فتبناها أغسطس رحمة بها ، ونشأها فى قصره مع ابنته وخاصة بيته ، عسى أن ينسيها ذلك مأساة أبيها ، ولكن الفتاة لم تكد تكبر وتشب عن الطوق حتى ذكرت غدر قيصر بوالدها فأقسمت لتنتقمن منه للأب المقتول؛ ولكن كيف ؟ . . كيف تنتقم فتاة لا حول لها ولا قوة من إمبراطور عظيم قوى ، يسيطر على معظم العالم المعروف وقتذاك ؟ . .

وكان لأميليا حبيب يهيم بها حبّا ، وكان هذا الحبيب هو « سِنَّا » صديق الإمبراطور نجيه وأوفى رجال الدولة له . . فتطلب إليه أميليا فى إحدى النجويات بينهما أن يقتل لها قيصر ، وتقول : إنها لن تقبله زوجًا لها إلا إذا مهرها ذلك المهر .

وتدور الدنيا برأس سنّا ، إذ كيف يقتل صديقه الرجل العظيم الذى ارتفع برومة ودوخ الدنيا بأسرها ، وجعل الرومان سادة العالم ؟ . . إن سنّا يتوسل إلى أميليا أن تكلفه بنقل جبال الألب على أن تعفيه من ذلك الطلب . . لكنها تصر . . فلايملك المسكين إلا أن يمتثل ، ولاسيما بعد أن تتهمه بالجبن وقلة الوفاء لمن يدعى حبها . ويجتمع سنّا بطائفة من زملائه لتدبير مؤامرة اغتيال الإمبراطور ، ويكون من بين المؤتمرين بطل آخر وشريك لسنا فى حب أميليا يقال له مكسيم . وبينما المؤتمرون مجتمعين يدبرون ويفكرون إذا برسول الإمبراطور يدعوهم إلى قيصر ، فيسقط فى أيديهم ، ويحسبون أن أمر مؤامرتهم قد افتضح .

ويلقون أغسطس الذى يفاجئهم بأنه سئم الملك ، وأنه يستشيرهم فيما اعتزمه من النزول عن العرش والتخلى عن الحكم ! . .

إذن فالقيصر لا علم له بأمر مؤامرتهم ! . .

ويبدأ سنّا فينصح للإمبراطور بالاحتفاظ بعرشه ، والاستمرار فى الحكم ، إيثارا لصالح البلاد التى لا تدين بالطاعة إلا له ، والتى تعرف للإمبراطور العظيم ما قدمت يداه لها من خير . . ثم يرى سنّا أن ترك الأمر لشعب يحكم نفسه بنفسه هو شر ألوان الحكم ، والإمبراطور لا يرضى بذلك أبداً!! وينزل الإمبراطور على رأى سنا بعد جدل طويل ، وتقليب أوجه الرأى ، فيستبقى مقاليد الحكم ! . .

فإذا خلا سنّا إلى مكسيم ، إذا هذا يلومه ويثرب عليه . . إذ كيف تتيح الفرصة للتخلص من أغسطس المستبد ، وتتيح دون إراقة قطرة من الدم . . فإذا سنّا زعيم المتآمرين هو الذى ينصح للطاغية بالبقاء ، وإذا هو الذى يصر على ذلك لصالح البلاد ومجد رومة ؟ . . ما هذا النفاق ؟! . .

ولكن سنّا يدفع ذلك بأن قيصر لابد أن يقتل وهو إمبراطور قائم بالحكم ، لأن ذلك هو مهر أميليا . . ولو أنه ترك الحكم لم يستطع سنّا أن يقدم لها هذا المهر .

وينفرد مكسيم فإذا هو المحب الغيور الناقم على سنّا ، وإذا هو يطلب رأى مولاه «أوفورب » فينصح له إذا أراد الفوز بأميليا أن يفضح سر المؤامرة إلى الإمبراطور .

ثم ينفرد سنّا فإذا ضميره يكاد يقتله من هول ما يدبر من اغتيال صديقه الإمبراطور. . وتفجأه أمليا وهوفريسة لوخزات هذا الضمير فتعيره بالجبن ، وبأنه غير كفء لها ما دام خوارًا جبانًا منخوب القلب . . وتفتك هذه الكلمات بنفس سنًا فيعدها بأنه سوف يقتل قيصر ليثبت لها أنه ليس كذلك ، لكنه يقول : إنه سوف ينتحر بيده بعد هذا، حتى لا يقضى عليه ضميره .

ويذهب أوفورب إلى الإمبراطور فيخبره بنبأ المؤامرة ، ثم يقول له : «إن مولاه مكسيم فدحه الأمر فانتحر غرقا فى نهر التيبر ، ولأن ضميره لم يطق حمل تهمة الوشاية بصديقه سنّا ! » . .

ويدهش قيصر ، ويخلو إلى زوجته يطلب إليها الرأى ، فتنصحه بالمغفرة والعفو لأنه أحسن ما يتحلى به الحاكم القادر . . . لكنه لا ينتهى إلى شىء ! . .

ويخلو المسرح . . وتدخل أميليا منتظرة أن تتلقى نبأ مصرع قيصر ، قاتل أبيها ولكن مكسيم يدخل ليتوسل إليها أن تفر معه ؛ لأن الإمبراطور قد علم نبأ مؤامرة سنّا ، وهو لابد مقضى عليه . لكن أميليا تشم رائحة الخيانة فى حديث المحب الغادر ، فتأبى إلا أن تكون وفية لسنّا . . وهنا يصمم مكسيم على قتل سنّا قبل أن يقتل هو والمتآمرون .

وفى الفصل الخامس والأخير يدعو الإمبراطور سنّا فيجرى بينهما حوار وعتاب طويل ، ويسأله كيف سولت له نفسه بعد الذى غمره به من فضل ، وبعد أن جعله نجيه ومستشاره فى مهام الحكم أن يفكر فى قتل صديقه أغسطس . . ويحاول سنّا أن يتنصل من تبعة المؤامرة ، لكن الإمبراطور يكشف له جميع أسرارها وما دار بين المتآمرين وعلى رأسهم سنا ؛ وهنا تدخل أميليا لتقول : إنها هى المتآمرة الأولى ، وإنها هى التى دبرت كل شىء ، فإذا عاتبها قيصر ذكرت له أباها الذى قتله ـ ولكن سنّا يعود فيعترف بأنه رأس المتآمرين ، وذلك إبقاء على حبيبته أميليا . . ثم يدخل مكسيم فيعترف بخيانته . . وهنا يبدو الإمبراطور العظيم فى كل نبله وكرمه . . فيغفر لهم جميعًا ، لأنه سيد نفسه ، كما أنه سيد العالم . .

ويعهد لسنّا بمنصب كريم ، ولمكسيم بولاية خارج البلاد .

ويتزوج سنّا أميليا على يد إمبراطور الرومان .

* * *

ولعلك تستطيع أن تدرك أن كورنى فى سنّا قد أتقن المذهب الكلاسى بعد أن أفلت منه زمامه فى « السيد » ، وإن تكن « السيد » أروع من سنّا وأعظم بما لا يقاس .

* * *

أندرو ماك :

مأساة نظمها راسين (١٦٦٧م) وحافظ فيها محافظة عجيبة على وحدة الزمان ، غير أنه وزع الفعل توزيعا عادلا على أبطالها الأربعة : بيروس وأندرو ماك ، وأورست ، وهرميون ، حتى لا تكاد تميز من هو بطل المأساة الأول (إن لم تكن أندرو ماك) .

انتهت حرب طروادة بسقوط المدينة الخالدة فى أيدى اليونانيين الذين قتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال وعادوا إلى أوطانهم بعد طول الغياب عنها . وكانت أندروماك زوجة هكتور بطل طروادة العظيم الذى قتله أخيل ومثّل به من نصيب بيروس ابن أخيل . وعاد بها بيروس إلى بلاده أبير (ألبانيا والصرب اليوم) . . ولم تكد عيناه تقعان على أندروماك حتى أغرم بها ، وفنى فيها حبّا . . فقد زادها الحزن لما أصاب بلادها وزوجها ومواطنيها فتنة حسنة . . ولعل الجمال الحزين أفتك أنواع الجمال كما يقول الشعراء . . وكانت أندروماك تصحب معها ولدها الصغير أستياناكس ابن هكتور العظيم . . .

وكان أخيل قد خطب من منلوس ملك أسبرطة إبنته الجميلة المفتان هرميون بنت هيلين الحسناء التى كانت سببًا فى حرب طروادة ؛ لتكون زوجة لولده بيروس فلما عاد بيروس إلى أبير وجد تلك العروس هرميون فى انتظاره هناك ! . . لكنه كيف يتزوجها وقد أصبح الفؤاد مشغولاً عنها بغيرها ؟ . . وبمن ؟ . . بأندروماك أجمل حزينة فى العالم كله ! . .

إذن . . فليهملها بيروس حتى يستطيع أن يستميل إليه أندروماك ، تلك الزوجة الوفية لزوجها ، البارة بولدها ، والتى لا يمكن أن تنسى ! . .

وفجأة يحضر إلى أبير الملك أورست موفدًا من قبل ملوك اليونان جميعًا لكى يعود بالغلام أستيا ناكس بن هكتور إلى بلاد اليونان لكى يقتلوه هناك حتى لا يكبر ويفر إلى طروادة ، ويستعد هناك لمحاربة بلاد اليونان ثأرا لقومه ولبلاده ولمقتل أبيه . هكذا قرر ملوك اليونان . . وهكذا أرسلوا أورست ليسفر عنهم عند الملك بيروس .

ولا يكاد أورست ينزل إلى البر فى أبير حتى يلقاه صديقه وأستاذه القديم الشيخ بيلاد، الذى لا يكاد يعرف فيم أقدم أورست حتى يخبره ما كان من أمر بيروس وأندروماك وهرميون ، فيذهل أورست ، ويتحرك فى قلبه هواه القديم . . فقد كان هو مولعًا بحب هرميون . . ولا يزال . . وهذه فرصته للفوز بحبه القديم الذى لم تخمد ناره ولم يهدأ أواره ! . .

وكان الملك منلوس قد طلب من أورست أن يعود بابنته هرميون إذا لم يقبل بيروس تسليم أستياناكس . فيا لها من فرصة ! . .

ويلقى أورست صديقه بيروس ، ويطلب إليه تسليم الطفل ، ولكن بيروس يغضب ، ويعجب لهؤلاء الملوك اليونانيين كيف يفكرون ؟ . . وكيف يطلبون ما ليس لهم ؟ . . ويرفض تسليم ابن هكتور لأعداء هكتور . . وإذا ذكر أورست هرميون لم يبال بيروس أن يصرح لها بالعودة إلى بلادها أجابه إنها . . أمامه . . فليعد بها إذا شاء!

فإذا خرج أورست رأينا أندروماك آتية من ذلك الجناح الذى تقيم به فى القصر عابرة طريقها لزيارة ولدها فى الجناح الآخر ، وكان بيروس يفرق بينهما عامدًا لكى يثير فيها وجدها حتى ترضى أن تتخذ منه زوجًا لها . . وهنا يسألها بيروس عما إذا كانت لا تزال فى تأبيها ورفضها اليد التى لا تزال ممتدة إليها . . وتجيب أندروماك جواب الحرائر المحزونات اللاتى قصم الحزن ظهورهن ، متوسلة إليه أن يتذكر أنها زوجة بطل ، وأم غلام ، وابنة بلاد مغلوبة على أمرها . . وألا سبيل مع ذلك كله إلى زواج ! . . وعند ذلك يخبرها بنبأ أورست وما يطلبه ملوك اليونان من تسليم ولدها إليهم حتى يأمنوا شره إذا كبر . . وأنه مستعد إذا رضيته زوجًا أن يتخذ من ولدها ابنًا له يحميه ويدفع عنه غائلة الأعداء . . وليس هذا فحسب . . بل هو مستعد أن يناصر ابنها إذا أراد محاربة أعدائه اليونانيين وأن يكون معه ضدهم . . إلا أن هذا كله لا يدير رأس أندروماك . .

ويلقى أورست هرميون فتنفض له قلبها ، وتلح عليه فى أن يعدّ العدة لكى تهرب معه إلى بلادها ، وتعده إذا هو أفلح فى هذا أن تكون له ! . . فيعاهدها أورست على ذلك . .

وتنتهى أندروماك من زيارة ابنها ، ويلقاها بيروس مرة أخرى ، ويعيد عليها ما عرضه أولاً ، لكنها لا تتزحزح عن موقفها . . وهنا يصارحها بأنه مضطر إذن أن يسلم ولدها إلى أعدائه ليقتلوه . . . لكنها ترجوه ألا يجعل قبولها الزواج منه بالرغم من أحزانها وأوجاع نفسها ثمنًا لنجاة الطفل وإنقاذه من الموت الذى يتربص به . . بل أحرى به أن تدفعه مروءته ورجولته إلى إنقاذ أستياناكس الذى لم يجن ذنبًا ولا ارتكب وزرًا .

وهكذا يخيب رجاء بيروس العاشق ، ولا يجديه تهديده فتيلاً ، فيعزم على الذهاب إلى هرميون يسترضيها ويبشرها بتمام زفافهما الليلة ! . .

ولا تكاد هرميون تتلقى من بيروس تلك البشرى حتى تضحك لها الدنيا ، وحتى تزهر فى فؤادها ورود السعادة جميعًا . . وها هى ذى تجلس إلى مرآتها لكى تستعد وتتزين . . فلم يبق على موعد الزفاف إلا ساعات ! . .

وفيما هى كذلك إذ يدخل إليها أورست يقول : إنه قد أعد السفن ، وأن كل شىء على أحسن ما يرام ، وأن الفرار الفرار ! . .

لكن ؟ . . ماذا ؟ . . إن هرميون تستهزىء به وتسخر منه ، وتنكر أنها قد طلبت منه شيئًا أو كلفته بشىء ! . . . وأنها سوف تزف إلى حبيب القلب ومنية النفس بعد ساعات ؟ ! . .

ويسقط فى يد أورست ، ولا يدرى بماذا يجيب ! . . إن هذا انقلاب مفاجىء ، وخيبة آمال محطمة ! . . فيمضى وهو لا يكاد يرى طريقه ! . .

وتذهب أندروماك إلى هرميون تلتمس منها أن ترجو بيروس ألا يسلم ابنها إلى أعدائه . . بعد أن علمت أن الزفاف سيتم الليلة . . ولكن هرميون المنتصرة . . بل المنتشية بخمرة النصر . . تنتهزها فرصة لإذلال أندروماك ، ضرتها وغريمتها فى قلب بيروس ، فتقول لها : « ولماذا لا تجربين عينيك الجميلتين فى ترويض قلب بيروس ، وإرغامه على ألا يسلم ولدك إلى أعدائه ؟ . . » .

وتكون هذه نقطة تحول فى المأساة ! . .

إن أندروماك مهما تكن فلن تكون إلا امرأة لها كبرياؤها وعزة نفسها ! . . إنها تجيب هرميون ! . . « أهكذا ؟ . . إذن . . فسوف أجرب ؟! . . » .

وتخرج من عند هرميون فتلقى بيروس صدفة ، فينتهز الرجل هذه الفرصة ليضرب آخر سهم تبقى فى جعبته ؛ ولا يكاد يلقى سؤاله على أندروماك حتى ترجوه أن يمهلها قليلاً حتى ترى رأيها ! . .

ويطرب بيروس . . ولا ينسى هرميون فقط ، بل ينسى الدنيا وما فيها ومن فيها ! . .

وتلقى أندروماك وصيفتها التى تنصح لها بالاستجابة لبيروس إنقاذًا للطفل ، وليس خيانة لهكتور ! . .

وتقول أندروماك : إنها سوف تستخير روح هكتور ، والظاهر أن روح هكتور قد أباحت لها الاستجابة حتى ينجو الطفل . .

وتلقى أندروماك بيروس فتجيبه إلى ما كان يصبو إليه من البناء بها والزفاف عليها . . وتعلم هرميون بانعكاس الريح فتضطرب الدنيا من تحتها ، وترسل وصيفتها إلى أورست فيحضر فتطلب إليه أن يغتال بيروس ، وأن يقدم إليها رأسه مهرًا لزواجهما إن كان حقّا يهواها ولا يزال يبقى على حبها ! . .

ويحاول أورست أن يقنعها بأنه سفير وليس قاتلاً . . ولكنها تصر . . فإذا تردد رمته بالجبن والخور وانخذال العزيمة . . وعند ذلك ينفى عن نفسه الجبن فيقول لها : إنه سوف يقتل بيروس الليلة ، وهوجالس على المنصة إلى جانب عروسه أندروماك . . لكنه سوف يقتل نفسه بعد ذلك مباشرة ! . . وذلك لتعلم هرميون أن أورست الذى قتل أمه لن يجبن عن قتل أحد من الناس ، لكنه يفعل ذلك برهانًا على حبه وصادق هواه . .

فإذا خرج من لدنها أرسلت وصيفتها فى إثره لتقول له : « لا تنس وأنت تطعن بيروس أن تقول له ـ إنه خنجر هرميون الذى يطعنك ! . . » .

ويذهب أورست إلى الهيكل ليقتل بيروس ؛ لكنه يجد هناك هرجًا ومرجًا . . لقد سبقه جنوده اليونانيون إلى قتل الملك لما علموا أنه يأبى تسليم الطفل ، ويأبى إلاّ أن يتزوج الطروادية ! . .

ويسرع أورست بالعودة إلى هرميون التى لا تكاد تسمع النبأ من شفتيه حتى تثور به وتقذف بالحمم من فمها فى وجهه : « أيها الجبان كيف قتلت حبيبى ؟ كيف سولت لك نفسك أن تقتله ! . . كان يجب أن تفهم أن محبة ولهانة هى التى كلفتك بهذا ! . . » .

وتطير هرميون إلى المعبد لتقتل نفسها على جثمان بيروس . .

وتلبس أندروماك التاج ، وتعلن أنها لابد أن تنتقم لزوجها من قاتليه . . وهى لذلك تقود أهل أبير لمطاردتهم .

ويقف أورست وحده فى المسرح حائرًا زائغ العينين . . ليموت كمدًا وحسرة ! . .

* * *

الكلاسية الحديثة خارج فرنسا :

أشرنا ـ فيما مر بك من هذا الحديث الخاطف ـ إلى قيام المذهب الكلاسى الحديث فى إنجلترا على يد الراهب رايمر (١٦٤١ ـ ١٧١٣) ثم ما أداه للمذهب فيما بعد الشاعر جون دريدن ، وبوب ، وبعض الذين كانوا يضيقون ذرعًا برومنسية شيكسبير فيما بعد . . كما أشرنا إلى قيام هذا المذهب فى ألمانيا وما صنعه لسنج فى كتابيه : «لا وكون» ، وبحثه فى « الشعر المسرحى فى هامبورج » ، وهما الكتابان اللذان تأثر بهما شلر وجوته .

أما فى غير هذه البلاد فقد كان حظ المذهب الكلاسى الحديث من الضآلة بحيث لم يترك مؤيدوه آثاراً مسرحية ذات بال .

ولعل خير ما نظم دريدن هى مأساته « الكل فى سبيل الحب All For Love » التى عارض فيها مأساة شيكسبير « أنطونى وكليوباترة » والتى قصر حوادثها على حصار خصوم أنطونى له فى الإسكندرية « ضمانًا لقانون الوحدات الثلاث ؟ . . » ومن هنا تفوق عليه شيكسبير الذى وسّع مجال مأساته بحيث جعله يشمل ما بين رومة والإسكندرية ، كما عدد حوادث المأساة ولم يحصرها فى عقدة واحدة كما صنع دريدن .

ناثان الحكيم :

كتبها لسنج الألمانى سنة ١٧٧٩ ، وجعلها فى ثلاثة فصول ، مخالفًا بذلك ما أوصى به هوراس ، وما أخذ به معظم الكلاسيين . . وناثان الحكيم أشبه بمنظومة مسرحية قصصية فلسفية هدفها التسامح الدينى وتقريب أوجه النظر بين المسيحيين والمسلمين واليهود ؛ وقد احتفظ لها لسنج بقانون الوحدات وإن عقد وحدة الموضوع قليلاً .

فهذا ناثان رجل الأعمال اليهودى يعود إلى بيت المقدس بعد رحلة تجارية فيعلم أن

ابنته بالتبنى ركا Recka قد أنقذت من حريق شب فى بيته على يد راهب ألمانى من فرسان الحرب الصليبية الثالثة الذى أسرته جيوش صلاح الدين الأيوبى ، ثم أطلق السلطان سراحه لشبه شديد بينه وبين شقيق السلطان الذى لا يدرى أين هو الآن .

ويذهب ناثان الذى كان يصفه الناس «بأن الله قد أعطاه أعظم عطاياه وهى الحكمة ، وأتفه ما يهبه لمخلوق وهى الثروة »لكى يشكر الراهب الفارس الألمانى الذى كان يذهب يوميّا للقيام بجولة مباركة حول قبر سيدنا عيسى « المخلّص » . لكن الراهب لا يقبل شكر الحكيم اليهودى ويرفض هديته ويرده أول الأمر أقبح رد ، ويقول للرجل : « . . فإذا أبيت إلا أن تقبل هدية من يهودى فسآخذ هذا الوشاح الذى لفحته النار وأنا أنقذ ابنتك . . وعندما يصبح أسمالاً فلسوف أعود إليك لأقترض منك مالاً لكى أشترى وشاحًا غيره » .

وهنا يتناول ناثان الوشاح ، ولشدة دهشة الراهب الفارس يرى عبرة تترقرق فى عين اليهودى ثم تستقر على الوشاح . . فيعجب ، لأنه لم يكن يظن قط أنه ثمة يهودًا صالحين فى أى ركن من أركان العالم ، ويجيبه ناثان (!) : « بل ثمة أناس صالحون فى كل فج يا صديقى ؛ لأن لشجرة الحياة أفرعًا كثيرة وجذورًا . . ولا يعقل أن أعلى فرع فى هذه الشجرة هو وحده الذى نما من أمنا الأرض . . ونحن يا بنى لم نكن الذين اخترنا لأنفسنا الجنس الذى ينتمى إليه كل منا . . إن اليهود والمسلمين والمسيحيين كلهم لآدم . . وكلهم أناسى . . فدعنى أتعشم أننى وجدت فيك إنسانا ! . . » .

ولا يملك الفارس الراهب إلا أن يعتذر ، ويتناول يد ناثان مصافحًا ؛ ويتعرف الرجلان كل منهما إلى أخيه . . فإذا سمع ناثان اسم صاحبه بدا عليه العجب حين يعرف أن اسمه « كيردفون ستوفن ! . . » إلا أنه لا يقول شيئًا ، لأن رسولاً يصل فيستدعيه للقاء السلطان صلاح الدين الذى يريد أن يستدين من اليهود قرضًا .

ولا يكاد السلطان يجتمع باليهودى حتى يتأثر بحكمته ودماثة خلقه ـ ولا يملك إلا أن يسأله عن أية الديانات الثلاث هى أصح الديانات فى نظره ؟ . . وهنا يقص عليه اليهودى القصة الطريفة التالية :

« كان هناك رجل يا مولاى يملك يومًا ما خاتمًا ثمينًا كان من يلبسه يفوز برضا الله ومحبة الناس ، مهما يكن هذا الذى يلبسه ، ولما مات مالك الخاتم تركه لأحب أبنائه إلى نفسه ، ولما مات هذا الابن ترك الخاتم بدوره لأحب أولاده إليه . . وهكذا دواليك . . حتى انتهى الخاتم إلى رجل كان له ثلاثة أبناء ، وكانوا جميعًا أثيرين إلى نفسه، ولا يفضل أحدهم أخاه فى قلب أبيه . وحار الرجل فيمن يعهدإليه بالخاتم المبارك منهم . . وأخيراً قرر أن يصنع خاتمين جديدين مثل الخاتم المبارك تمامًا ، وأن يعهد إلى كل من أبنائه بخاتم من الخواتم الثلاثة ، ولكن هذا لم يمنع نشوب الشقاق بين الأبناء الثلاثة ، كل منهم يدعى أن خاتمه هو الخاتم المبارك الأصيل . . تمامًا كما يتنازع اليهود والمسلمون والمسيحيون حول دياناتهم ، وأيها الديانة الأصلية ! . .

وأخيرًا يلجأ الأبناء الثلاثة إلى أحد القضاة ليفصل بينهم ، فيقول لهم القاضى :

« إذا كان كل منكم قد تسلم خاتمه من يد أبيه مباشرة على أنه هو الخاتم الأصيل المبارك فليستمر فى اعتقاده هذا . . وفيم الخلاف ، وقد كان أبوكم يحبكم جميعًا ويسوى بينكم فى حبه ، وقد كان أقصى ما يتمناه هو أن يقيم كل منكم على محبته لأخيه ؟! . . » .

ويسر السلطان بهذه القصة اللطيفة ويبلغ منه التأثر مبلغه ، ويأذن لناثان الحكيم بالانصراف ، لكن ناثان يعرض على السلطان القرض ، ولا يشترط إلا أن يأذن له صلاح الدين بأن يسترد من القرض جانبًا يسدد به دينه الذى يدين به للفارس الراهب الذى أنقذ ابنته . . ويتذكر السلطان الفارس ، ويأذن لناثان فى أن يصحبه معه إلى بلاطه .

وفى الوقت نفسه علم الفارس الراهب من بعض رفاق ركا أنها فتاة مسيحية سرقها ناثان وهى طفلة ، ونشّأها على أنها فتاة يهودية . . وتلك جريمة لو اكتشفت لكان عقاب مرتكبها الموت . . وكان الفارس الراهب قد أولع غرامًا بركا ، ومن ثمة فقد قرر أن ينقذها من هذه الضلالة اليهودية ؛ ولذلك فهو يتحدث بما بلغه إلى البطريق المسيحى الذى يرسل أحد رهبانه ليتجسس له على ناثان .

إلا أن هذا الراهب لا يكاد يرى ناثان حتى يعرف فيه ذلك المحسن القديم المشهور، فيسأله قائلاً : « هل تذكر أن أحد أصحاب الضياع قد عهد إليك منذ ثمانى عشرة سنة بطفلة مسيحية لتتعهدها برعايتك ؟ . . إننى أنا هذا السيد . . أما الطفلة فهى ابنة وولف فون فِلْنك ، وكانت أمها قد توفيت حينئذٍ ، وكان أبوها قد اضطر إلى الفرار إلى غزةَ . . ثم لم يلبث أن توفى فى عسقلان » .

ثم يتولى ناثان إتمام القصة ، فيقول : إنه لم يكد يتسلم الطفلة حتى قام المسيحيون بمذبحة أهلكوا فيها جميع اليهود فى المدينة ، بمن فيهم زوجة ناثان ، وأولاده السبعة الذين أرسلهم إلى قرية أخيه ليرعاهم . . ومن ثمة أقسم ناثان عل الحقد والكراهية لجميع العالم المسيحى . . إلا أنه تقبل الطفلة المسيحية مع ذاك ، وطبع على خدها قبلة أبوية ، وعدّها منحة من إله السموات وعوضًا له عن أبنائه المقتولين المحبوبين .

ثم يسأل الراهب عما إذا كان اسم والدة الطفلة هو فون ستوفن ، ويجيبه الراهب : إنه يعتقد أن هذا هو اسمها ، لكنه سوف يحضر له كتاب صلوات صغير وجده فى جيب والدها المتوفى ، وقد كتب فيه بيانًا بأسماء أقاربه وأقارب تلك الزوجة » .

وبعد ذلك يدعو السلطان ناثان الحكيم الذى بسط عليه صلاح الدين فيض رعايته كما يدعو ركا والفارس الراهب إلى قصره ، ويعرض أن يتزوج الفارس وركا ، ويطلب من ناثان مباركة هذا الزواج وقبوله :

ـ ناثان : « لا تطلب هذا منى أنا يا مولاى . . بل اطلبه من أخيها ! » . .

ـ صلاح الدين : «ومن عسى أن يكون أخوها ذاك ؟ » . .

ـ ناثان : «إنه هو هذا الفارس الراهب الشاب !» . .

ويوضح ناثان اللغز ، فيقول :

إن البيان الموجود فى كتاب الصلوات يثبت أن اسم الفارس الحقيقى هو : ليو فون فلنك . . وأن اسم أمه هو : فون سنوفن ، ومن ثمة فليو و ركا هما أخ وأخته ، وهما ابنا وولف فون فلنك ، ثم يقول : إن وولف فون فلنك ليس إلا شقيق صلاح الدين «شقيقك يا مولاى » ، وإن الفارس المسلم الذى يتسمى باسم ألمانى هو فون فلنك بعد أن تامته الفتاة المسيحية حبّا .

وهكذا تجد قصة الخواتم الثلاثة شبيهًا لها من هؤلاء الإخوة الثلاثة . . اليهودى والمسيحى والمسلم . . ولا سيما بعد زواج الفارس المسلم من الفتاة المسيحية التى رباها ناثان اليهودى .

* * *

وليم تل :

وإذا كنا قد لاحظنا أن مأساة لسنج « ناثان الحكيم » ليست إلا قصيدة مسرحية فإن مأساة « وليم تل Wihelm Tell » التى نظمها شلر سنة ١٨٠٤ ليست إلا ملحمة مسرحية ، وهى من سلسلة مسرحياته الرائعة التى كان يحاول فيها المزج بين المذهبين الكلاسى والرومانسى ، وإليك خلاصتها :

كان جسلر Gessler الحاكم الظالم الطاغية للولايات السويسرية لا ينفك سادرًا فى غيه ، ولا يتورع أن يسوم الناس الخسف وسوء العذاب ، وقد بدأت العداوة الضارية بينه وبين وليم تل ، أحد القناصة الشجعان ، فى أثناء عاصفة هبت على بحيرة لوسرن ، وذلك حينما تحدى تل أمواج تلك البحيرة التى كانت ترتفع كالجبال فحمل فى زورقه أحد المزراعين الذى كان جنود جسلر يتعقبونه بأمر سيدهم للقبض عليه ، فعبر به تل البحيرة ، غير مبالٍ بأمواجها المغضبة الثائرة : « لأن البحيرة تأخذها الرأفة بالرجل ، أما جلسر فلا يمكن أن يلين قلبه له أبداً ! . . . » .

ويشتد سخط تل على جلسر ، ويشاركه الفلاحون هذا السخط عليه حينما يملأ الحاكم الطاغية جميع السجون بضحاياه المظلومين ، وحينما يبنى سجنًا كبيرًا جديدًا فى مدينة آلندورف لضحايا أكثر ، وحينما يضع قبعته على عود من الخشب أمام ذلك السجن ويأمر كل مار بأن ينحنى للقبعة ، وإلا . . كان جزاؤه الموت ! . . ومما زاد سخط الناس عليه أنه لم يبال بأن يسمل عينى رجل طاعن فى السن لهنة من الهنات ارتكبها الرجل من غير قصد ولا عمد . وقد كان تل يقف بمعزل عن الثوار ، إلا أنه كان يعدهم بمد يد المساعدة كلما احتاجوا إليها .

وكان يعطف على الثوار بارون عجوز هو البارون أتنجهوزن ، إلا أن ابن أخيه

ووريثه ألريك الرودنزى كان ضالعًا مع الطاغية جسلر ومن أنصاره لحب بينه وبين الفتاة برتا التى كان الطاغية وصيًا عليها . وكان البارون لا ينفك ينصح لوريثه ألريك بأن الطاغية إنما يتخذ من برتا طعما لألريك . . وأنه خليق به أن يلوذ بأذيال الثائرين الذين لابد أن يتم لهم النصر والأمر فى النهاية . . لكن ألريك الذى كان دائمًا يهرع إلى بلاط جسلر تعمى بصيرته لا يستمع إلى نصيحة عمه ، يلوذ بأكناف جسلر .

وبينما يكون ألريك وبرتا فى رحلة من رحلات القنص إذا هى تهمس إليه بأنها لن تبادله حبًا بحب إلا إذا انضم إلى الثوار لتحرير قومه من قبضة الطاغية .

ويتأهب تل للقيام بزيارة إلى والد زوجته ، وهو أحد زعماء الثوار ، لكن زوجته تتوسل إليه عبثًا أن يؤجل ذلك حتى لا يعده جسلر فى عداد أعدائه ، لكن تل يصر على زيارة صهره ؛ لأنه ليس لديه ما يخشى عليه . . ثم يتناول قوسه وسهامه ، ويصطحب ابنه وولتر ، ويمضى على بركة الله ! . .

ويمر تل بالسجن الجديد ، ويفوته أن ينحنى احترامًا لقبعة جسلر فيقبض عليه حراس السجن ، ويسعى عدد من الفلاحين فى إنقاذه عندما تنطلق فرقة قناصة الحاكم فى رحلة من رحلات القنص . . ويحضر جسلر فيطلب تفسيرًا من تل لعدم إطاعة أوامره بالانحناء لقبعة الحاكم ، فيعتذر تل بأن هذا إنما حدث سهوًا . . ويقول جسلر إنه سمع أن تل بطل من أبطال الرماية بالقوس . . ويؤيد ذلك وولتر ابن تل بقوله : «أجل يا سيدى . . إن والدى يستطيع أن يصيب تفاحة بسهمه على بعد مائة ياردة! . . » .

وهنا يقول جسلر ! : « حسن . . فلابد أن تبرهن على براعتك هذه يا تل . . أصب بسهمك تفاحة من فوق رأس ولدك هذا على بعد مائة ياردة . . فإن لم تصب الهدف . . كان رأسك هو الثمن ! . . » .

وتنخلع قلوب المشاهدين . . ويجثو تل على قدميه أمام الحاكم الطاغية متوسلاً أن يسحب أمره الغاشم هذا . . ثم يكشف لجسلر عن صدره راجيًا أن يسدد إليه سهامه ليقضى عليه ، على ألا يعرض ابنه لهذا الهلاك . . ولكن جسلر يضحك ملء شدقيه

قائلاً إنه لم يرد حياته . . وإنما أراد أن يتسلى برؤيته يصيب هذا الهدف ! . . الدليل على مهارته ! . .

وهنا لا يملك الغلام وولتر إلا أن يتقدم إلى أبيه قائلاً : « أقبل يا والدى . . اقبل . . وأعدك أننى سأقف بلا حراك . . فلا تخف ! . . » .

ويتناول تل سهمين من كنانته ، فيجعل أحدهما فى حزامه ، ويرسل السهم الآخر إلى هدفه . . إلى التفاحة التى وضعها الظالم الغاشم فوق رأس وولتر . . ويقف الغلام بلا حراك . . ويصيب السهم التفاحة . . وعند ذلك يلقفها وولتر ويجرى بها نحو أبيه سعيدًا ، وهو يقول : « ها هى ذى التفاحة التى أصابها السهم يا والدى . . لقد كنت واثقًا أنك لن تصيبنى بمكروه أبدا ! . . » .

ويجثو تل على ركبتيه ليعانق فلذة كبده . . ولكن جسلر لم يكن قد فرغ من أمر تل بعد . . وها هو ذا يناديه قائلاً : « كلمة يا تل . . لقد رأيتك تضع سهمًا آخر فى حزامك ، فماذا كنت تعنى ؟ . . » .

ويجيبه تل : « كنت أعنى أن السهم الأول إذا أصاب ولدى ، أصاب السهم الثانى فؤادك ! . . » .

ويأمر جسلر بتكبيله وحمله إلى سجن كَسْناخت ؛ إلا أن عاصفة عاتية لا تلبث أن تهب وتل محمول فى الزورق ، فإذا العاصفة مدد من عند الله أثارها لإنقاذه ، فلقد كان حراسه يعلمون أنه وحده هو الذى يستطيع قيادة الزورق وسط تلك العواصف ، ومن ثمة حلّوا وثاقه ليتولى عنهم تلك المهمة . . ثم لا يكاد يصل بهم إلى رأس جسر حتى يثب إلى البر ، ثم يركل الزورق بشدة فيجعله داخل البحيرة ، تاركا آسريه لحظهم وسط العاصفة الجائحة . ويخبر تل أحد صيادى السمك أنه بصدد تدبير خطة لن تلبث حتى تكون ملء الأفواه والأسماع .

وفى الوقت نفسه يكون رجال جسلر قد ذهبوا بعيدًا ببرتا ، مفرقين بينهما وبين حبيبها ، ويكون قد آن الأوان لألريك لكى ينضم إلى مواطنيه ، ولا سيما بعد أن يصارح جسلر بقسوته فى امتحان تل ، وبعد أن يدرك أنه يكون خائنًا لوطنه إن لم يفعل ، وبعد

أن يكون عمه قد توفى بعد إيعازه إلى الفلاحين بأن « زمن الأشراف فى طريقه إلى زوال . . وأن يوم الشعب على الأبواب . . وأن زهرة الفروسية قد حان حينها ، وعلم الحرية يرفرف عاليًا خفاقًا ! . . فاتحدوا أيها الرفاق . . واعتصموا بحبل من الله . . وعليكم بالوحدة والجماعة . . وكونوا يدًا واحدة . . يدًا واحدة . . وعلى قلب رجلٍ واحد! . . » .

ويلم ألريك شعث الفلاحين ويضم صفوفهم فيختارونه زعيمًا لهم ، فتكون خطته أن يتسلحوا ، ثم يتربصوا حتى يروا النيران تشتعل فوق رؤوس الجبال إيذانًا بالجهاد ، ومن ثمة ينقضون على الطاغية . . ويكون تل من خلفهم . . واقفًا وراء ناصية أحد الجبال نذير شؤم لجسلر ، ينتظره ، ويتلهف على ظهوره ، وفى يده قوسه وسهامه ؛ ولا يلبث جسلر أن يظهر ومن حوله بطانته . . لكن امرأة مسكينة تقطع عليه طريقه وقد اجتمع حولها أطفالها السبعة ، تلتمس منه أن يطلق سراح زوجها ، وأن يمن على أبنائها بما يرد عنهم مس جوعهم ؛ إلا أن جسلر الذى قد قلبه من صخر لا يصيخ إلى نداء المرأة ؛ بل ينذرها بأنها إن لم تزل من طريقه لأمر بإلقائها أسفل الجبل ! . . ولكن . . ولكن المرأة لا تملك عند ذلك إلا أن تلقى بنفسها هى وأبنائها تحت سنابك الخيل وهى تقول : « إذن . . فهلم ! . . طأنا بسنابك خيلك أيها الظالم الباغى ! . . » .

وهنا يربد وجه جسلر ، ويقول : « عجبًا ! . . لقد طمع هؤلاء الكلاب فى سلوكى الطيب معهم ! . . أما والله لأغيرن خطتى فى حكمهم منذ اليوم . . » .

ولم يكمل جسلر جملته . . لقد اخترق سهم تل صدره ! . .

ويمسك الطاغية بقلبه قائلاً :

ـ « إن هذا سهم وليم تل ولا شك ! . . آه يا ربى . . ارحمنى والطف بى ! . . » ، ثم يخر من فوق جواده . .

وتنهض المرأة فرحة متهللة ، وهى تقول :

ـ « لقد قتل . . قتل . . إنه يسقط . . ويتخبط فى دمه ! . . . انظروا يا أبنائى ، انظروا كيف يموت طاغية ! . . » .

وبهذا تعطى الإشارة لحراس الجبال فيشعلون نيرانهم .

وفى الفجر . . يندفع الفلاحون الثائرون إلى السجون فيطلقون سراح ضحايا جسلر . ويجدون فى أحدها الفتاة الحسناء برتا . . ويقودهم ألرك إلى منزل تل ليهتفوا باسمه وليحيوا بطل الحرية وساحق الاستبداد ، ودرع الحق ومنقذ الشعب .

وتطلب إليهم برتا أن يتقبلوها عضوًا فى جماعتهم فيلبون طلبها . . ثم تمنح يدها للبطل ألريك الذى يقبّلها ، وهو يقول :

« ومن هذه اللحظة يصبح أرقائى أحرارًا ! . . » .

* * *

أفرأيت ؟ . . أين هذه المسرحية من المذهب الكلاسى ؟ . . أليست إلى الرومنسية أقرب ؟ . .

* * *

الدكتور فاوست :

يقولون : إن جوتة بدأ نظم مأساته « فاوست » سنة ١٧٧٣ ولم ينته من الجزء الأول منها إلا فى سنة ١٨٠٦ ، ثم انتهى من الجزء الثانى سنة ١٨٣١ ، والسبب فى ذلك أنه كان ينصرف عن العمل فى المأساة إلى أعمال أدبية وعلمية أخرى ، ثم لا يعود إليها إلا بعد حين . . ويقولون أيضا إنه لم يفكر فى موضوع فاوست إلا بعد أن قرأ مأساة الدكتور فاوست للشاعر مارلو الإنجليزى ، مع أن مارلو لم يفكر فى نظم مأساته إلا بعد أن قرأ أسطورة فاوست المترجمة إلى الإنجليزية عن الألمانية [1] ! . .

وتقول أسطورة فاوست الألمانية : إن رجلاً من أغنياء سوابيا توفى عن ثروة كبيرة ، ولم يكن له وريث من صلبه فآلت ثروته إلى ابن أخيه الساحر فاوست الذى أخذ يبعثر هذه الثروة فى التماس السعادة عن طريق الملذات ، إلا أنه مع ذاك لم يجدها ، وبدلاً من أن يتوب إلى الله ويلوذ بحمى الطهر والسلام نراه يعقد عهدًا مع الشيطان على أن يمد له

(١) ألفها سنة ١٥٨٧ الكاتب الألمانى بوهان سبايز Johann Spies ، واقتبسها مارلو للمسرح سنة ١٥٨٨ بعد ترجمتها إلى الإنجليزية مباشرة (د . خ) .

الشيطان فى حبل غوايته ويحقق له كل ما تصبو إليه نفسه من لذائذ وأهواء طوال أربع وعشرين سنة يكون له الشيطان فى أثنائها عبدًا ذلولاً للشيطان أبد الآبدين . . بجسمه وروحه معًا ! . .

ويقول بعض المؤرخين : إن جوتة ألهم فكرته عن فاوست من تمثيل هذه الأسطورة فى مسرح من مسارح الدمى ، وحينما انتهى الأجل المضروب بين فاوست والشيطان انهال الشيطان على فاوست يضربه ضربًا مبرحًا ليضع بهذا حّدا لحياته ، ما دام قد أصبح له عبدًا إلى الأبد بمقتضى العهد ! . .

* * *

وبعد حوار دراماتيكى ساخن ويهبط الشيطان من الأعالى نحو الأرض لكى يغرى فاوست ، هذا العالم الطبيب الطاعن فى السن . . وحيث يجده أسِفًا متحسرًا على حياته المَضَبَّعة وهو يناجى نفسه ، ويقول :

ـ « ـ ألم تعلمنى كل العلوم التى تعلمتها إلا هذا الذى انتهيت إليه ـ وهو أن الناس جميعًا لابد أن يموتوا بعد أن يتعذبوا وتقضى على نفوسهم الحسرة ! . . وأنهم ، وهم لا ينشدون إلا الحياة والخلود ، لا يسيرون إلا نحو الموت ، وهم عنه كالعميان الذين لا يبصرون ! . . » .

وعند ذلك يدخل عليه الشيطان فيعرض عليه حياة جديدة ليس فيها تعب ولا فيها نصب ، حياة كلها شباب يتجدد من نفسه ، ولا تخلق بردته أبدا . . حياة يكون له فيها الشيطان عبدًا ذلولاً ، إذا رضى فاوست أن يكون للشيطان عبدًا فى العالم الثانى .

وتستهوى الفكرة فاوست المسكين المضيّع ، وتكبر فى نفسه تلك الحياة التى يتنقل فيها من لذة إلى لذة ، ومن نعيم إلى نعيم . . فيرضى أن يصبح عبدًا ذلولاً بدوره للشيطان ، ولكن عندما يكون قد بلغ قمة السعادة وغاية غايات النعيم ! . . ويتعاهدان على ذلك ، ويكتبان به صكًا بمداد يتخذانه من نقطة من دم فاوست ! . .

وهنا يسحر الشيطان فاوست فيرده فتى فى ريعان شبابه ، وشابًا حلو اللفتات ساحر

القسمات . . ثم ينطلقان إلى حانة آورباخ حيث يقصفان مع الشباب والعاكفين على اللذائذ ثمة ، وحيث يشير الشيطان إلى زق من النبيذ فتندفع منه الخمر فيحيلها نارا . . ثم ينطلق به الشيطان بعد هذا إلى مطبخ الساحرات حيث يقدم إليه جرعة لا يكاد يشربها حتى يتمكن منه حب اللحم . . وبالأحرى الشهوة البدنية الفتاكة . . ثم يخرجان من مطبخ الساحرات فيلقيان تلك الفتاة الحلوة المتفتحة الشباب البسامة الثغر، الساحرة العينين ، ذات العود اللدن والقوام الخصيب . . جرتشن Gretchen، أو مارغريت . . فيتقدم إليها فاوست الجميل فيعرض عليها حمايته ، إلا أنها تنهره وتعرض عنه . . لكنه لا يستطيع مدافعة رغبته فيها فيشكو ذلك إلى شيطانه ، فيعظه الشيطان ـ قاتله الله ـ ويقول له : وكيف ، والفتاة الصالحة عائدة الآن فقط من لدن القسيس الذى كانت تدلى إليه باعترافها ! . .

ولكن فاوست الذى استبدت به شهوته يهدد الشيطان بأنه إن لم ييسر له ذلك الصيد الليلة فإنه مضطر إلى النكوص عما ارتبط به من عهد .

ويحتال الشيطان فى لقاء يجمع بين فاوست وبين الفتاة فى بستان مجاور ، وببعض الرُّقى يسحر الملعون قلب الفتاة الطاهرة فتشغف حبًا بذلك الشاب الساحر الجذاب الذكى ، حتى إذا أوشكا على الفراق ألحت عليه فى أن يعاود زيارتها . . وفى الزيارة التالية يلح فاوست على الفتاة أن يزورها فى غرفتها بعد أن تنام أمها . . فإذا أبدت له مرغريت خوفها من أن تستيقظ أمها فتكشف سرهما أعطاها جرعة منومة تجعلها فى شراب أمها . .

ويتم هذا اللقاء الآثم . . وينتهى الاتصال الدنس بمأساة . . إن الجرعة تقتل الأم . . وها هى ذى مارغريت يأتيها المخاض ، وتوشك أن تلد ! . .

ويعود فالنتين ، أخو مرغريت ، من خدمته بالجيش فيسمع الناس يتهامسون ، والفضيحة تزكم الأنوف ، فيبحث عن فاوست لينتقم منه للشرف الذى لابد لسلامته من أن يراق على جوانبه الدم، ولكن فاوست يطعن فالنتين طعنة يكون فيها القضاء عليه، ويلفظ الشاب آخر أنفاسه وهو يلعن مارغريت .

ويفزع فاوست من ذلك كله فيلتمس متعًا روحية غير هذه المتع المادية البشعة ،

فينطلق به الشيطان إلى بيت الساحرات حيث يشارك الأرواح الشريرة شعوذاتهن السحرية الغريبة المستهجنة . . إلا أن هذا كله لا يستطيع أن يصرفه عن التفكير فى مرغريت ، فيأمر الشيطان أن يعود به إليها .

ولكن . . لقد ضاع كل شىء ! . . إنه يجد أن مرغريت قد زج بها فى السجن بتهمة قتلها ولدها . . وهى ترفض ما يعرضه عليها فاوست من محاولة إنقاذها ، لأنها تفضل أن تواجه العقوبة بمعونة الله . . وهكذا تقضى مرغريت كما يقضى القديسون الشهداء .

وهكذا تنتهى مغامرات فاوست فى دنيا الشهوات دون أن يجد فيها لحظة واحدة من النعيم الخالص الذى يمكن أن يكفل استسلامه للشيطان وفقًا للعهد المشئوم . إنه الآن راغب أشد الرغبة فى تجربة كل آلام العالم . . فى سبيل معرفة أشجان الإنسانية وسعاداتها .

وهنا وينتهى الجزء الأول من مأساة فاوست . . ينتهى بتمجيد فاوست لمرغريت بوصفها رمزًا للمرأة الخالدة . . الأبدية .

* * *

فإذا كان الجزء الثانى رأينا الشيطان الخائب . . الذى لم يظفر بما أراد من فاوست بعد . يغرى الدكتور بألوان من المتع والمسرات من نوع آخر . إنه يأخذه من هذا العالم الصغير الذى دفع به إليه فى الجزء الأول . . إلى عالم كبير ضخم لم يكن لفاوست به عهد . . إنه يدفع به إلى بلاط الإمبراطور ، فيعينه مستشارًا له وناصحًا . . إلاّ أن ذلك كله لا يخدع فاوست ، لأنه من المظاهر الجوفاء فى نظره . . إنه يحن إلى حياته العاطفية المثيرة الماضية . . وهنا يهبه الشيطان قدرة خارقة يستحضر بها روح هيلين زوجة منلوس من بطون الماضى السحيق . . هيلين الجميلة المفتان التى أثارت المجزرة بين شعبين ، وحطمت قوى جيشين . . فتظهر له ولا تفتأ تعذبه بجمالها ومفاتنها ، حتى إذا هم بها لم يجد بين يديه سوى وشاحها ! . .

وهكذا لا ينفك فاوست المعذب الشقى يمضى فى سلسلة من التجارب وراء

سلسلة ، باحثًا عن السعادة الحقيقية الخالصة ، فلا يجد إلا الفشل . . ولا يواجهه إلا الإخفاق ، وإذا فاز بشيء لم يفز إلا بما هو أشقى من الفشل والإخفاق فى كل مسعى من مساعيه . . حتى هذا النصر الذى ظفر به للإمبراطور فى إحدى المعارك ، لا يلبث أن يتكشف عن كونه هزيمة ساحقة .

ولا يملك الشيطان الرجيم إلا أن يقدم لفاوست أقصى مافى طوقه أن يقدمه له . . إنه يخلع عليه ممالك بأسرها ، ومدنًا وأممًا . . ويمكّنه من أمجد الفعال الحسية . . كما يمكّنه من أجمل جميلات الدنيا . . ومن المجد والشهرة ـ ولكن . . ماذا ؟ . . إن روح فاوست قد أصابتها الكظة ، وأخذت تشكو التخمة من ذلك كله ، ومن تلك اللذائذ المادية جميعًا .

وكما حدث فى الجزء الأول يكون فاوست قد بلغ أوج حياته الجديدة . . وتجلى خسرانه المبين . . وها هو ذا عهد فتوته يمضى ويتقلص ، وتوشك السنون الأربع والعشرون على النهاية ، ويداه فارغتان من كل شيء . . إلا الوهم . . وإلا الباطل .

وها هو ذا يرتد إلى شيخوخته من جديد ؛ فلا يجد فيها إلا الآلام والأشجان وإفلاس الروح ودمار النفس وخواء القلب . . وانحطاط القوة . . إنه لا يجد من حوله إلا رماد ذكريات . . وآثار شباب . . وطفيف أمانى . . ثم تأتى عاشرة الأثافى فيعشى بصره، وتعمى عيناه ، فييأس إلى الأبد مما كان يجرى وراءه ، ويبحث عنه . . وهوالسعادة الخالصة ، والنعيم المصفى ! . .

وإذ يفيض به الكيل على هذا النحو يدرك الشقى المسكين أن السعادة التى كان ينشدها لم تكن إلا وهمًا فى وهم ، ويكتشف فجأة أن السعادة هى فى إنجاز ذلك المشروع الإنسانى الضخم الذى طالما تخيله . . ولذلك فهو يقرر المطالبة بتلك المستنقعات الساحلية الشاسعة ليقيم فوقها مساكن صحية للملايين من البشر الذين يمكن أن يكافحوا فى سبيل المحافظة على حريتهم . وهكذا يظفر الآن فاوست بتلك اللحظة السعيدة التى كان يحلم بها . . بعد أن جعل هذا الهدف نصب عينيه . . وبالأحرى ، بعد أن أنكر ذاته فى سبيل خير الآخرين ، إنها اللحظة التى تدرك فيها البشرية كلها أوج السعادة وقمة النعيم .

إلا أن فاوست يموت فى تلك اللحظة نفسها . وقد يخيل للشيطان أنه كسب رهانه

الذى راهن الله عليه ؛ فمن ذا الذى يجادل فى أن فاوست قد ارتكب أغلظ الذنوب وتردى فى أبشع الآثام ؟ . . وها هو ذا إبليس عليه اللعنة يطالب بروح الطبيب العلامة . . إلا أن الملائكة التى تتنزل من السماء فى شؤبوب من الزهر تنازعه وتدفعه عن روح فاوست ، ثم تحمل الروح الطاهرة إلى السماء ، لأن فاوست على الرغم من كل خطاياه، وعلى الرغم من جميع آثامه ، لم ينفك يناضل الظلمات التى كان يشقها حتى بلغ النور .

وكانت روح مرغريت التى تسبب فاوست فى خطيئتها وفى موتها ، أول من رحب بروح فاوست فى العالم الثانى . . لأن رسالتها قبل أن تكون رسالة أحد سواها ، هى أن تتولى قياده فى مملكة السماء . . لأن :

المرأة هى المنقذ الأبدى للرجل دائماً . .

إن روح فاوست الآن حرة طليقة . .

وبمنأى عن كيد الشيطان . .

وكل من يسعى فلا يعييه السعى . .

جدير ببلوغ بر الخلاص .

* * *

هذه هى مأساة فاوست إذن . . ومن تلك الخلاصة السريعة يتبين لنا أنها قصة أسطورية رومانسية ، أكثر منها انتسابا إلى المذهب الكلاسى ، أو أنها من ذلك المذهب الكلاسى المنحول Pseudo - Classic الذى تحلل فيه منشئوه من الكثير من خصائص المذهبين الكلاسيين القديم والحديث . . ولن يخفى عليك استنتاج ذلك من مجرد قراءة خلاصة تلك المآسى الألمانية . على أن الذى يجب ألا يغيب عن بالك بعد أن تقرأ هذه الخلاصات السريعة لثلاث من المآسى الألمانية الكبيرة أنها تمتاز بنزعة إنسانية واضحة يتجلى فيها أثر الصراع الكبير الذى نشب بين المذهب الكلاسى الحديث والمذهب الرومنسى الحديث ، مما سنعرض له فيما بعد .

* * *